التفسير العلمي للقرآن الكريم
بين النظريات والتطبيق

بقلم
الدكتورة لمنذر شلبي

أستاذة مساعدة بالكلية الزيتونية
للشريعة وأصول الدين
تونس

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

تونس
1985/1406

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وأودع فيه من الحكمة والكلمات ما إن كان البحر مدادا لها لنفد قبل نفادها . والصلاة والسلام على النبي العربي الأمي المبلغ للرسالة والحافظ للأمانة .

وبعد ، فإن الذي دعاني الى الكتابة عن التفسير العلمي للقرآن الكريم عدة أمور منها :

1) ــ سعة التأليف فيه ، وقد لاحظنا أن الكتابة في هذا الموضوع قد نمت كمّا وكيفا ابتداء من أواخر القرن الماضي واحتدمت التآليف فيه في عصرنا الحاضر .

2) تعدد محيّر لمواقف العلماء والباحثين حول مسألة قبول التفسير العلمي للقرآن الكريم أو رفضه ...

3) عدم وقوفي على دراسة علمية مركزة في هذا الموضوع تحاول فرز الآراء وتنظيمها، ومناقشة ما جاء فيها للترجيح بينها، فإن أهم ما كتب في هذا المعنى الفصل الوارد في كتاب الشيخ محمد حسين الذهبي « التفسير والمفسرون » تحت عنوان : التفسير العلمي ؛ لكنه لا يعدو أن يكون استعراضا لمذاهب العلماء في القديم وفي الحديث مع الاستشهاد ببعض أقوالهم . نستثني من ذلك ذكر الأسباب التي عددها الشيخ الذهبي ليعلل رفضه للتفسير العلمي للقرآن .

4) الحرية الواسعة التي صرنا نلاحظها لدى عدد من الباحثين وكذلك أيضا من لم يبلغوا بعدُ درجة البحث[1] في تعاملهم مع المعاني القرآنية .

ومعلوم أن العلماء قد ضبطوا منذ البداية العلوم التي لا يجوز الخوض في علم التفسير قبل تحصيلها . فمنها ما يعود الى اللغة ومنها ما يعود الى القواعد النحوية والصرفية ، ومنها ما يتعلق بالأسلوب والبلاغة ، ومنها ما يعود الى القرآن نفسه،وتعرف في مجموعها بعلوم القرآن كمعرفة المكّي والمدنّي ، والعامّ والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيّد الخ ...

وكثيرا ما صرنا نشعر أمام بعض الكتب والمقالات بزهد بالغ في تلك العلوم نتج عنه كثير من التقوّل الذي لا يمكن أن يدركه من لا يملك من العلم ما يستطيع بفضله مناقشته والتفطن الى بطلانه . وكأنما نسي الباحثون أنهم يتعاملون مع القرآن ، وكأنما غفلوا عن الوعيد الذي يهدّد كل من قال في القرآن بغير علم . حدث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول

---

(1) انظر مثلا مقال : البناء الكوني بين نظرة القرآن ونظرة العلم ، يوسف الحمدي ، **المغرب العربي** ، السنة الثالثة ، العدد : 76 ، السبت 5 نوفمبر 1983 ، 43-45 . والمقال عملية نسخ مشوهة للفصل الرابع من كتاب «نقد الفهم العصري للقرآن» للدكتور عاطف أحمد، ط أولى ، 1972، بيروت .

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا الحديث عنّي إلا ما علمتم فإنه من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[2]

لأجل ذلك حرصت في هذا البحث على أمرين :

1) محاولة الإلمام بمواقف العلماء من التفسير العلمي للقرآن مع عرض للحجج المؤيدة والأدلة المناقضة، وخصصت لذلك القسم الأول من البحث وهو القسم النظري .

2) الاحتكام في الموضوع الى القرآن وعلومه والى اللغة العربية بالاعتماد على الأمهات من كتب اللغة والتفسير وعلوم القرآن .

وبذلك يمكن إعطاء تفسير بعض المسائل التي قمت بتحليلها في القسم الثاني من البحث ، وهو القسم التطبيقي ، نوعا من الشرعية التي لا مناص من توفيرها لمن يريد الخوض في الآيات القرآنية .

إن تفسير القرآن بالرأي بدأ مبكّرا واستمر على امتداد العصور الإسلامية . ويصعب تصور اليوم الذي يأتي ويتوقف فيه هذا النوع من التفسير ، لكنه يجب التمييز بين نوعين من التفسير بالرأي :

1) النوع المشروع : وهو الذي يستجيب للشروط الموضوعة من طرف علماء الجماعة .

2) النوع المرفوض:وهو الذي يخوض صاحبه في الآيات القرآنية بدون عتاد ، أو يطوعها لتتفق مع المذهب الذي يدافع عنه .

وقد ذكر ابن عطية في هذا المعنى عند شرحه لحديث : « من تكلم

---

(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ط. أولى،1389/1969،بيروت،323/1 .

في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[3] قوله : « ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول . وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه . . »[4] .

إن الذي ينبغي ان يتحراه الباحث في دراسة موضوع التفسير العلمي للقرآن صحة المعاني في الألفاظ ، وتقصّي الرواية المتعلقة بالآيات . ولا يوجد أيّ داع الى التنظير بين التفسير العلمي للقرآن والتفسير العلمي للعهد القديم والعهد الجديد مثلما فعل بعضهم . فإنه وإن تشابهت العملية بينهما فإن المضمون يختلف . ولا داعي كذلك إلى إعادة ما جاء في الدراسات المقارنة[5] والتي أبرزت الفروق الواضحة بين القرآن وبين التوراة والإنجيل في علاقتهما بالعلم .

ولا شك ان اختلاف المضمون يؤدي.الى اختلاف النتائج ضرورة . فلئن أظهر البحث فُرقة بين ما جاء في العهدين وبين ما أكده العلم الحديث لأسباب يدركها من وقف على تاريخ التوراة والأناجيل ، فإنه لا يلزم عن ذلك تمرير النتائج وتسليطها على القرآن لاختلاف طبيعة حفظه على الصورة التي ورد بها علينا عن طبيعة حفظ التوراة والأناجيل على الصورة التي

---

(3) **صحيح الترمذي**، 1292 هـ، تفسير، 1 ، 157/2 . والحديث مروي عن جندب بن عبد الله .

(4) مقدمة ابن عطية لتفسيره **الجامع المحرر** ضمن كتاب : **مقدمتان في علوم القرآن**. وهما: مقدمة كتاب المباني ، ومقدمة ابن عطية، 1954م، مصر، 263.

(5) مثل كتاب : Maurice BUCAILLE, La BIBLE, le CORAN et la SCIENCE, édition Seghers, 1976.

نقرأها عليها اليوم . ومن أهم القضايا التي أثيرت بمناسبة الخوض في التفسير العلمي للقرآن والتي عقدتُ لها فصلا في هذا البحث مفهوم المعجزة .

فالقرآن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الشاهدة على صدقه . وللمعجزة خصائص تفردت بها جعلت البشر العاديين عاجزين عن أن يأتوا بمثلها بالكيفية التي تحصلت بها على يد الأنبياء . ولا شك أن المنطق الذي تجري وفقه المعجزة غير المنطق الذي تجري عليه قوانين البحث في دائرة العلوم المادية. فالمعجزة كما أُدركها تمثل تحقيقا فوريا للأمر الإلـهي الذي بفضله يخلق آلله الكائنات، بينما لا تخرج البحوث العلمية عن دائرة الطاقة البشرية المترددة بين الخطأ والصواب .

وقد جرّ تحمّس البعض للعلم الى إنكار المعجزة يعني الطرف المقابل في البحث لأنها في نظرهم لا تخضع لقوانين العلوم المادية التي وضعها الإنسان ليدرك بها حقائق الأشياء . وربما تجاوز بعضهم هذا الإنكار الى اعتبار المعجزة ظلمة يمحوها نور العقل إذا ما بزغ[6] . وما درى هؤلاء أن الذي أظهر المعجزة على يد الأنبياء هو الذي خلق العالم المادّي وقوانينه التي يسير عليها وطالب الخلق بالنظر فيها ليصلوا عن طريقها الى إدراك بارئها . فأي منطق هذا الذي يجعل المعجزة ــ وهي البرهان الإلـهي على صدق نبوة الأنبياء ــ تأتي على خلاف المبدأ الذي عنه أظهر الله تعالى كافة المخلوقات . إن معجزة الأنبياء من خلق آلله تعالى ولئن غاب إدراكها عن الفهوم فإنما ذلك لنقص فيها لا لنقص أو خلل في المعجزة .

إن هذا البَحث الذي أقدمه لا أدّعي فيـه استفراغ المسائل الداخلة

---

(6) **الإنسان الحائر بين العلم والخرافة**. د. عبد المحسن صالح، عالم المعرفة، 15 1979/1399 ، الكويت ، 9 .

في موضوع التفسير العلمي للقرآن الكريم فإنه موضوع واسع ومعقد ، لكنه قد بدت لي فيه منهجية ربما كانت أسلم من غيرها في معالجة هذا الموضوع ، فإن أصبت فيها فذلك من الله تعالى وإن أخطأت فإنما ذلك من نفسي ، وإنما يشفع لي أني قد تحرّيت الحق فيما قلتُ . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

تونس في : 20 جمادى الثانية 1405

12 مارس 1985

د. هند شلبي

القسم النظري

الفصل الأول ــ التفسير العلمي للقرآن .

الفصل الثاني ــ تحليل تفصيلي لمذاهب العلماء في التفسير العلمي للقرآن .

الفصل الثالث ــ تقييم ما جاء في المذاهب المذكورة .

الفصـــل الأول

التفسير العلمي للقرآن

إن بداية التأليف حول القرآن قَصْد الإلمام بمعانيه اتجهت أولَ الأمر الى إفراد موضوع معيّن بجزء فأكثر يستوفى فيها ما يتعلق بذلك الموضوع . فظهرت كتب في معاني القرآن ، وأخرى في مشكله أو مجازه أو غريبه أو متشابهه أو ناسخه ومنسوخه أو أحكامه[1] وغير ذلك من الموضوعات التي نجدها مدروسة عادة في كتب علوم القرآن .

وفي مرحلة تالية عمد العلماء الى ضم المتفرق من تلك الموضوعات وخرجوا على الناس بتفاسير سمتها الشمول حيث يتناول المفسر فيها الآية من ناحية اللغة والآثار والبلاغة والتشريع الخ ... كما نجد ذلك مثلا في تفسير الطبري ، وابن عطية وأبي حيان وغيرهم .

---

(1) انظر **الفهرست** لابن النديم ، القاهرة ، 57-63 .

ومن الموضوعات ما حظي أكثر من غيره بالاهتمام واستمر إفراد الآيات المتعلقة به بتآليف مستقلة الى اليوم ، وأعني بذلك آيات الأحكام . فإلى جانب المؤلفات القديمة فيه ظهرت تآليف معاصرة تهتم به .

وقد ظهر على غرار هذا نوع ثان من تفاسير الاختصاص وقع الاهتمام فيها بعدد من الآيات تمتُّ بموضوعها الى العلوم الحديثة بصلة كالآيات التي يذكر فيها الكون بأرضه وسمائه وكواكبه، والآيات التي تتحدث عن الإنسان في خلقته وخُلُقه ، وعاداته ، في تفرده وفي اجتماعه .

واتخذ التأليف في هذا النوع من الآيات صورتين :

1 ــ صورة نسجت على منوالَ مناهج بعض المفسرين بتقسيم السورة الى مقاصد وتحليل كل مقصد بعد ذلك بالوقوف على الآيات ، بعد توزيعها الى مجموعات تتحد في الموضوع ، وتفسير كل مجموعة منها لفظيا أولا ، ثم بما يقتضيه الكلام الوارد فيها من بيان يعتمد علوم الأثر أو علوم العقل . وأبرز من تبنّى هذه الطريقة من القدامى الفخر الرازي في « التفسير الكبير » ومن المحدثين الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره « الجواهر » .

2 ــ الدراسة المركزة على الآيات العلمية أو الآيات الكونية الواردة في القرآن يذكرها المؤلف عادة دون تقيد بترتيبها في المصحف ، بل يستشهد بما تيسر منها كلما تطلب منه البحث

ذلك . والغالب على هذه الدراسات أن تكون مبوبة على الموضوعات[2] . وعُرف البحث في هذا الموضوع **بالتفسير العلمي**[3] أو الاتجاه العلمي في التفسير[4] أو التفسير العصري[5] .

والذين أرخوا تيارات التفسير صنفوا العلماء إزاء هذا الموضوع صنفين : المعارضون والمؤيدون[6]. غير أن الواقع يقتضي مزيدا من التدقيق والضبط فيصنّف المعارضون صنفين :

1 ــ المعارضون مطلقا ،
2 ــ المعارضون المحترزون .

---

(2) انظر على سبيل المثال كتاب « **القرآن والعلم** » أحمد محمد سليمان، ط. 5 1981 م، دار العودة بيروت ؛ وكتاب «**الاسلام والكون**» د. عبد الغني عبود ط 2، 1982 م، دار الفكر العربي .

(3) محمد حسين الذهبي ، **التفسير والمفسرون** ، 1962/1381، دار الكتب الحديثة القاهرة، 140/3 ؛ أمين الخولي ــ **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**، 1961 م، القاهرة ، 287 .

(4) د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب ، **اتجاهات التفسير في العصر الحديث** ، ط. أولى ، 1393 / 1973 ، دار الفكر بيروت ، 247 .

(5) د. بنت الشاطىء،**القرآن والتفسير العصري**، 1970 ، دار المعارف بمصر . وفي هذا الكتاب رد على د. مصطفى محمود في كتابه **القرآن ، محاولة لفهم عصري** .

(6) انظر **التفسير والمفسرون** ، 140/3-151 ؛ **اتجاهات التفسير في العصر الحديث** ، 295 . وقفت أخيرا على دراسة د. عبد الله شحاتة : **تفسير الآيات الكونية**، ط. أولى،1980/1400 ، دار الاعتصام ، حيث صنف المؤلف العلماء في هذه المسألة في ثلاثة اتجاهات : اتجاه مؤيد ، واتجاه معارض ، واتجاه وسط ، 8-7 .

مع اعتبار أن المعارضين مطلقا ينقسمون الى قسمين :

أ ــ المعارضون مطلقا مع عدم التحيز الى العلم ،
ب ــ المعارضون مطلقا مع التحيز الى العلم .

كما يصنف المؤيدون صنفين :

1 ــ المؤيدون مطلقا ،
2 ــ المؤيدون المحترزون .

ويرجع تعدد مواقف العلماء على النحو الذي ذكرناه الى تنوع مواقفهم من مسائل هامة قامت عليها قضية التفسير العلمي للقرآن ، ولعل ضبط هذه المسائل بين يدي البحث يعين على تفسير هذا التعدد في المواقف وإدراك الأسباب التي يتعلق بها كل واحد منها .

المسألة الأولى : حقائق الدين وحقائق العلم :

هذه مسألة عامة طرحت منذ أقدم العصور الإسلامية بعد أن حذق المسلمون العلوم الحكمية[7] التي نقلوها عن اليونان وعادت الى الظهور في عصرنا الحاضر وتتمثل في المقارنة بين الحقائق الصادرة عن الدين والحقائق الصادرة عن العلم للخروج بأحد

---

(7) وهي صناعة الطبيعيين والإلـٰهيين والرياضيين والمنطق . انظر كتاب **الاعلام بمناقب الاسلام** ، أبو الحسن محمد بن يوسف العامري (ت 381-992) 1967/1387 ، دار الكتاب العربي ، 85 .

الاستنتاجين التاليين : 1 ــ الجمع بين الحقيقتين ، 2 ــ الفصل بينهما .

المسألة الثانية : إعجاز القرآن :

بكر العلماء في الاهتمام بهذه المسألة فضبطوها بجميع جزئياتها وتناقلها عنهم الخلف جيلا بعد جيل ، واحتفظ البعض بمسائلها كما جاءت عن السلف لكن البعض الآخر رأى أن يضاف اليها ضرورة من أوجه الإعجاز ما مثله يؤمن عليه الناس اليوم . وأهم أوجه الإعجاز التي أضافوها الإعجاز العلمي .

المسألة الثالثة : اللغة :

تعالج المسألة الثالثة علاقة اللغة ، يعني الألفاظ بالمعنى من جهة ، وربطها بالزمن الذي ظهرت فيه من جهة أخرى ، فمنهم من حجّر فهم النص وقيّده بمعاني ألفاظه زمن نزول القرآن ، وبالتالي بالمستوى الذهني الذي كان عليه الناس في تلك الفترة ، ومنهم من فتح باب الفهم على مصراعيه وأحدث جدلية بين النص وبين المعنى تكسب النص حداثة متجددة تواكب تطور الفكر في إدراك حقائق الأشياء .

المسألة الرابعة : تغير المفاهيم :

ترتبط هذه المسألة بالمنهجية التي ينبغي بها تناول النصوص عند البحث والتحليل . واللفظ الأساسي في هذا الموضوع هو لفظ

العلم ، وهو وإن كان واحدا، فإن المفاهيم التي تعلقت به متغايرة . فالمعنى الذي أعطاه الغزالي المتصوف لهذا اللفظ يختلف عن المعنى الذي اراده الدكتور البشير التركي الفيزيائي منه ، وإنْ كان كلاهما من القائلين بالتفسير العلمي للقرآن . ومن باب أولى أن يتغير مفهومه مع من لا يشاطر الغزالي ولا الدكتور البشير التركي في النتائج ، أعني مثلا الأستاذ أمين الخولي أو الدكتور محمد أركون[8] .

المسألة الخامسة : الروح التي ينظر بها الباحث في القرآن :

لاحظنا أن العلماء في هذه المسألة صنفان :

1 ــ المؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله فهو في نظرهم حَكَم على غيره ومصدر لاستمداد حقائق الأشياء منه[9] .

2 ــ المؤمنون بأن القرآن ظاهرة ينبغي دراستها كما تدرس بقية الظواهر الاجتماعية ، فتحكم فيه قواعد المنهجيات الحديثة في البحث . وهذا يجرّ لا محالة الى إعادة النظر في مفهوم قدسيته وفي مدى صحة المعلومات الواردة فيه[10] .

وقبل الشروع في تحليل المواقف التي ضبطناها لا بد أن نشير

---

(8) انظر تفصيل رأيهما فيما سيأتي .

(9) انظر تحليل هذا الموقف فيما سيأتي .

(10) نفس الملاحظة . قارن مع مفهوم الظاهرة عند مالك بن نبي في كتابه **الظاهرة القرآنية** ، 1981/1402 ، دار الفكر ، دمشق ، 63 .

الى كون المنطلق واحدا بالنسبة الى الجميع ، وهو الإقرار بوجود آيات قرآنية كريمة فيها دعوة الى التأمل في الكون وما فيه من كائنات . لكن الاختلاف يبدأ مع كيفية فهم هذه الآيات وتحديد الدلالات التي سيقت من أجلها .

الفصـــل الثـــاني

تحليل تفصيلي لمذاهب العلماء في التفسير العلمي للقرآن

1ـــ المعارضون مطلقا :

أ ـــ الممثلون لهذا المذهب دون التحيز الى العلم :

ـــ أبو إسحـٰق الشاطبي :

يمثل هذا الفريق من العلماء القدامى أبو إسحـٰق الشاطبي . وقد أقام رفضه للتفسير العلمي للقرآن على مفهوم الأميّة . فالشريعة في نظره ينبغي أن تكون أمية لأنها نزلت في قوم أميين[11] . وليس من الحكمة في نظره أن يخاطب القوم بما لا يفهمون[12] وأن يكلفوا ما لا يعقلون[13] . وإن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تذكر الأرض والسماء وما فيهما من كائنات لا يتجاوز ما زكاه القرآن من علوم كانت معهودة للعرب أيام نزول القرآن ، ذكر منها

---

(11) **الموافقات**، أبو إسحـٰق الشاطبي ، مطبعة المكتبة التجارية ، 69/2 .

(12) **ن . م** ، 85/2 .

(13) **ن . م** ، 88/2 .

علم النجوم[14] ، وعلم الأنواء[15] ، وعلم التاريخ ، وأخبار الامم الماضية ، وعلم الطب ، وأعرض عن ذكر الباطل منها كعلم العيافة[16] ، والزجر[17] ، والكهانة[18] ، وخط الرمل[19] ، والضرب

---

(14) علم أحكام النجوم : علم يتعرف منه الاستدلال بالتشكلات الفلكية من أوضاعها ... على الحوادث الواقعة في عالم الكون والفساد من أحوال الجو والمعادن والنبات والحيوان . **مفتاح السعادة** ، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده ، مصر 1968 ، 337/1 .

(15) الأنواء : في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من أمر الجاهلية لن يدعهن الناس : النياحة والطعن في الأنساب والأنواء : يقول الرجل:سقينا بنوء كذا وكذا،والإعداء أجرب بعير فأجرب مائة فمن أعدى الأول » **مسند الإمام أحمد** ، 1313 هـ ، مصر ، 526/2 ؛ وفي **لسان العرب** ، مادة : نوأ ، الأنواء : ج نوء وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوما فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة ... وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها . وقال الأصمعي:الى الطالع منها في سلطانه فتقول : مطرنا بنوء كذا .

(16) علم العيافة أو علم قيافة الأثر : وهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطريق القابلة للأثر . **مفتاح السعادة**،353/1 .

(17) علم الطيرة والزجر : عكس علم الفأل إذ المطلوب في الفأل طلب الإقدام على الأمر وفي الزجر طلب الهرب عن الأمر وهو تشاؤم الإنسان بشيء يرد المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس ... مثلا إذا أراد العرب سفرا يطيّرون طيرا فإذا طار عن اليمين يتوجهون الى المقصد وإن طار عن اليسار يرجعون عن السفر . **مفتاح السعادة** ، 362/1-363 .

(18) علم الكهانة : وهو مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من الجن والشياطين واستعلامها منها الأحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد لكنها مخصوصة بالأمور المستقبلة ، وكان ذلك في العرب كثيرا.**مفتاح السعادة** ، 364/1 .

(19) علم الرمل : وهو الاستدلال بأشكاله الاثني عشر على أحوال المسألة حين السؤال =